دستور العشاق دراسة تطبيقية
ابن الحداد (ت ٤٨٠ هـ) أنموذجاً

أ.م.د. خالد عبد الكاظم عذاري الماجدي
كلية التربية للعلوم الإنسانية/ جامعة البصرة

الخلاصة:

يُعدُّ كتاب طوق الحمامة أحدى المحاولات الرائدة في الثقافة الأندلسية التي حاول أصحابها اثبات الشخصية الأندلسية وتفوقها، ولإيجاد الهوية الأندلسية التي جهدوا في البحث عنها واثباتها كهوية للشخصية الأندلسية المستقلة عن الثقافة المشرقية التي عانوا من ان يُنعتوا بالتبعية لها، فجاءت رسالة ابن حزم الأندلسي خطوة متقدمة بين تلك المحاولات، فوثق بها تجارب العشق الأندلسية، وحكاياتهم الغرامية، ومغامراتهم الخاصة التي تفردوا بها عن غيرهم، مستعرضاً كل ذلك بأسلوب أدبي فني بما امتلكه من موهبة وبراعة متميزة.

حاول البحث ان يقتنص من كتاب طوق الحمامة الإشارات التي يمكن أن توصف بالقوانين الخاصة بالعشاق وأصحاب التجربة العاطفية في الغرام، التي شكلت منهجاً ثابتاً ساروا عليه منذ القدم، والذي على اساسه بنى ابن حزم كتابه، محاولين ان نطبق تلك القوانين أو الإشارات وبما يتناسب مع تجربة ابن الحداد الشاعر الذي عُرف بالعشق ولكن لم يحالفه الحظ ليأخذ نصيبه من الشهرة والذيوع لأسباب عرج عليها الباحثون قبلنا، وهذه المحاولة إنما جاءت للتعرف على المدرسة الغزلية التي تركها ابن حزم فضلاً عن مدرسته الفقيه.

Conclusion:

The book Tuq Al-hamama is one of the pioneering attempt at Andalusian culture that its owners have attempted to prove and exceed personality the Andalusian character and to find Andalusian identity, They struggled to find and proud it as the identity of the independent Al-Andalusian character about oriental culture that the suffered from being accused of subordination to it, Ibn Hazm Al-Andalusi 's message come an advanced step between these attempts. He documented the experiences of Andulusian love and her stories . try to search for a book Tuq Al-hamama the references that can be described and which formed a consistent

approach , We are trying to implement these laws or sings in a way that is commensurate with the experience of Ibn Al-Haddad. This attempt came to get to know the flirtatious that Ibn Hazm left as well as his school of jurisprudence .

المقدمة :.

لم نجد من الشعراء من لم يتغزل في شعره ويصف حاله وما يعانيه من ألم الوجد ويشتكي لوعة الصد والبعاد، حتى صارت حياة أغلب الشعراء في العشق واحدة متكررة مع مراعاة فوارق صدق التجربة وحرارة العاطفة التي يمكن أن تُحس من تلك القصص الغرامية التي رسمها الشعراء، فمنهم من طوّع خياله ليرسم تلك التجربة وفق ما يرتأي، فإذا ما جئت لواقعه لم ترَ من ذلك شيئاً إنّما هو رسم الخيال وتقليد للسابق ومجاراة لذوق المتلقي، في حين أنّ منهم من عاش التجربة وأحس المعاناة وصارع ألم الفراق والبُعد وتجرع مرارة الصد والحرمان، فحضرت التجربة الصادقة التي عكست بصدقة حرارة العاطفة المتدفقة من مشاعر عانت من تجربة مريرة كان عنوانها قصة عشق واقعية عاشها الشاعر، وهنا يكمن صدق الاحساس الذي يعيشه المتلقي فلا خيال يجمح بك على واقع معاش ولا تقليد فض جامد لا صدق فيه ولا احساس، انها تجربة معاناة واحساس صادق يصل من القلب الى القلب، وهذا ما يمكن أن نجده في تجربة الشاعر ابن الحداد مع نويرة التي عكسها بصدق في اشعاره وخلّد ذكرها، متنبأً بان حبه لنويرة سيكون أحدوثة الناس وانشودة القيّان في المجالس[١]:

سَيُصبحُ سرّي كالــصّباحِ مُشهّراً ويُمسي حديثي عُرضة المُتحدّثِ

ويَغْرى بذكري بين كأسٍ وروضةٍ ويُنشدُ شِعري بــين مثنى ومثلثِ

وما هذا الا تصديق لواقع المحبين فكما خلّد التاريخ ذكر العاشقين سيخلّد ذكره لأنه واقع شاعر لا خيال شاعر. وفي هذا البحث سنحاول ان نرصد هذه التجربة _ التي لم يسلط عليها الضوء كثيراً لأسباب لا مجال لذكرها هنا[٢] _ وفق دستور العاشقين (طوق الحمامة) الذي رسم فيه ابن حزم طريق الحب عموماً والعشق خصوصاً، محاولين أن نجيب على تساؤل الدكتور محمد مفتاح في هذا المضمار[٣]: أترك أبن حزم مدرسة غزلية كما ترك مدرسة فقهية؟

الكلمات المفتاحية: دستور العاشقين/ مدرسة ابن حزم الغزلية/ تجربة ابن الحداد/ نويرة.

ابن الحداد ونويرة :.

هو ابو عبد الله محمد بن خلف القيسي المعروف بابن الحداد[٤]، وقيل اسمه مازن[٥]، قال عنه ابن بسام: ((كان شمس ظهيرة، وبحر خبَرٍ وسيرة، وديوان تعاليم مشهورة، ... ، ترى العلم ينُّم على اشعاره ويتبين من منازعه وآثاره))[٦] وهذا ما يعكس اعجاب المترجمين به وبأشعاره إذ ((كان يتحيز الى فئة الوقار والحِلْم، وانّ مذهبه كان مذهب أهل الشرف))[٧] وقال عنه ابن سعيد في المغرب ((المستولي على الآماد، المجلّي في حلبات الأفذاذ والأفراد))[٨].

لقد عاش تجربة واقعية خلّدت ذكره مع العاشقين على مر التاريخ، إذ عشق فتاة رومية اسمها (جميلة) كان يكني عنها بـ (نويرة) له فيها شعر كثير[٩]، وقد اخلص لها حبه.

وقال ابن بسام أنّها قد ((ذهبت بلُبّه كل مذهب وركب إليها أصعب مركب، فصرف نحوها وجه رضاه وحكّمها في رأيه وهواه وكان يسميها (نُوَيْرَة)[١٠].

ولم تذكر المصادر التي ترجمة له ((أنّه أحبَّ غير واحدة، وشعره الغزلي لم يُشر الى أنّه عَلقَ بغير صبيّة، فالفتاة التي تغنى فيها وكثر تشبيهه بها واستفرغ فيها كل غزله نصرانية من مُستعربي المريّة، واسمها على الحقيقة (جميلة)....))[١١] وهذا ما يؤكده الوقوف على شعره في الغزل عامة وقصائده المستقلة في الغزل خاصة، التي بلغت ٢٤ قصيدة، تؤكد صفة الوفاء التي تحلى بها شعراء التجربة الصادقة في العشق، إذ اوقفوا اشعارهم على واحدة دون غيرها، ((واذا ما ذكر في غزله اسماء فتيات ... فانه يرمز بها الى محبوبته المذكورة، ... والتصريح بأسماء النساء المعشوقات في شعر الغزل لم يكن ظاهرة منتشرة في عصر الشاعر ولا في العصر السابق))[١٢] وربما يتفق هذا مع مبدأ شعراء الشعر العذري الذي هو ((صورة مصفاة مهذبة من صور الحب، تسمو على لذة الحس وتتعالى عن شهوة الجسد، وهو ظاهرة اجتماعية عرفها الأدب العربي بعد الإسلام واشتهرت بها قبيلة عربية عُرفت بالدماثة وكثرة الجمال وشيوع العشق بين أفرادها تلك هي قبيلة عُذرة التي نُسب اليها هذا الحُب فسُمّي الحب العذري))[١٣]. وهذا ما سار عليه ابن الحداد وما لمسناه من الاطلاع على اشعاره في العشق، ونعني بكلمة العشق هنا ما اشترحته القواميس من معنى عام لها ((العشقُ فرطُ الحبِ، وقيل: هو عُجْب المحب بالمحبوب يكون في عَفافِ الحُبّ، ودعارته، ... وسُمي العاشِقُ عاشقاً لأنه يَذبُل من شدة الهوى كما تذبل العَشَقَةُ إذا قُطعتْ، والعَشَقَة: شجرة تخضرُّ وتصفرُّ ... وزعم أنّ اشتقاق العاشق منه))[١٤]، وعن العشق قال ثُمامة: ((العشق جليسٌ مُمتعٌ وأليفٌ مؤنسٌ وصاحبُ مُلكٍ مسالكه لطيف ومذاهبه غامضة واحكامه جائرة، ملك الابدان وارواحها والقلوب وخواطرها والعيون ونواظرها والعقول وآراءها وأعطي عنان طاعتها وقودَ تصرفها، توارى عن الابصار مدخله وعمى في القلوب مسلكه...))[١٥].

وعاش ابن الحداد تجربة الصّد المستمر والهجر الدائم وعدم الوصال، إذ كان حبه من طرف واحد وهذا ربما غلّب المعاناة والشكوى الدائمة وجعلها طابعاً لأشعاره[١٦]:

هُم في ضميركَ خيّموا أم قوّضوا ... ومنى جُفُونكَ أقبـــلوا أم أعرضوا
وهُم رِضاكَ مـــن الزمانِ وأهلِهِ ... سخِطوا كما زعمتْ وشاتُكَ أم رضُوا
أهواهـــــم وإن استمرّ قِلاهم ... ومن العجائبِ أن يُحـــبَّ المُبْغَضُ

فغلب على اشعاره الغزلية الواقع المرير الذي يعيشه بين الصد والحرمان وتمني الوصال، وربّما سارت تجربته مع نويرة وفق خطوات الحب العذري الذي نظّر فيه الكثير من الباحثين[١٧] ومنهم في البيئة الاندلسية ابن حزم الأندلسي الذي رسم خطواته في كتابه طوق الحمامة جاعلاً منه دستوراً للعاشقين، وهذه الخطوات هي ما سنحاول تتبعه وتطبيق تجربة ابن الحداد على وفقه.

١- **علامات الحب وحال المحب:** حاول ابن حزم ان يرسم وفق دستوره علامات تميز بها المحب عن سواه، مثبتاً ذلك وفق تجارب عاشها أو شاهدها، جاعلاً من نفسه منظّر الحب الذي يصفه بان ((اوله هزل وآخره جَد، ودقّت معانيه لجلالتها عن أن توصف، فلا تدرك حقيقتها الا بالمعاناة))[١٨] فالشكوى والمعاناة أهم سمات الحب التي تميز المحب، مع تجويز الشريعة له ومحاولة ابن حزم ايجاد المبررات الشرعية التي لا تعوزه المقدرة الفقيهة من ايراد الاثباتات لها من أحاديث نبوية[١٩] وتجارب خلفاء ((وليس بمنكر في الديانة و لا بمحظور في الشريعة، إذ القلوب بيد الله عزّ وجلّ ...))[٢٠]، وهكذا أوجد ابن حزم صفات المحب فتعرفه دون أن تسأله، وهذه الصفات تجسدت واقعاً في اشعار العاشقين ولا سيما الاندلسيين منهم، إذ إنّ ابن حزم لا يمثل في الغالب الا الأندلس والمجتمع الأندلسي ولا ينتصر الا لبيئته التي يتظلم لها دائماً من النظرة الدونية التي رافقت الثقافة الأندلسية ازاء نظيرتها المشرقية ((ولعل ابن حزم كان يرى في هذا التعصب للأندلس إرضاء لغروره ورداً لاعتباره، الذي كان يرى شعور الاندلسيين بالنقص مسقطاً له ومزرياً به، ونائياً به عن المنزلة التي كان يرتضيها لنفسه))[٢١].

وانطبقاً مع تلك الصفات وانسجاماً معها يقول ابن الحداد[٢٢]:

وقـــد هوت بهوى نفسي مَها سبإٍ ... فهل درتْ مُضرٌ مـــن تيمتْ سبأُ
كـــأنّ قلبي سليمانُ، وهُـــدهُـــده ... لحظي وبلقيسُ لُبنى والهوى النّبأُ
فأعجبْ لهم وتروا نفسيْ وما شَعروا ... ولا دروا مـــن بعيني ريمهم وجأوا

من الملاحظ أنّ العاشق لا يرى أجمل من محبوبته فـ ((هي بدء المخلوقات وانتهاؤها ... إنّها كائن استثنائي مفرد... فهي جسمياً تأليف جامع لكل صور الخيال))[٢٣] والعين لا ترى غيرها على كثرة النساء والقلب متوجه نحوها دون غيرها وان اضر به الوجد وسحره جمالها حتى كاد ان يقتله شاكياً كل ذلك مستعيراً لحاله وما حل به قصة النبي سليمان (ع) وهدهده وبلقيس، فصار اللحظ منه هدهداً يجلب الانباء الى قلبه الذي جعله سليمان،

فكان النظر باباً للعشق وهذا ما صرح به ابن حزم واثبته في كتابه ((العين باب النفس الشارع وهي المنقبة عن اسرارها والمعبرة لضمائرها والمعرفة عن بواطنه))[٢٤]، وحتى النظرة بدورها لا تمتلك الوصول الى هذه الحبيبة المنيعة، ويقرّ ابن الجوزية بأنّ ((من علامات المحبّة التي يُستدل بها عليها... إدمان النظر الى الشيء واقبال العين عليه))[٢٥]،فالعين بهذا صارت مورطة فاضحة تُلقي بصاحبها في شراك الاعجاب والحب، ثم تدل عليه بتتبعها لمن أحب، فتراه يتلذذ بذكر اسمها ويُحب سماع اخبارها ((ومن اعلامه انك تجد المحب يستدعي سماع اسم من يحب، ويستلذ الكلام في أخباره...))[٢٦]، فنسمعه[٢٧] يلح في ذكر اسمها[٢٨]:

وناظري مُختلسٌ لمحـــها ولمحُـــها يُضرِمُ لـــوعاتي
وفـــي الحَشا نارٌ نُويريّةٌ عُلّقتُـــها منـــــذ سُنَّياتِ
لا تنطفي وقتاً وكم رُمتُها بل تلتظي فـي كـــل أوقاتي

وكذلك قوله[٢٩]:

إلى كم ذا أستِرُ ما أُلاقي؟ وما أُخفيهِ مِنْ شوقي يَبينُ
نويرةُ بـي نويرةُ لا سِواها ولا شَكٌّ فقد وضـــحَ اليقينُ

ومثل ذلك قوله أيضاً[٣٠]:

فـمن لجفوني بالتـــماحِ نـــويرةٍ فتاةٌ هي المَردَى لِنفسي والمَحيَا؟
سَبتني على عَهدٍ من السَّلم بيننا ولو أنّها حربٌ لكانت هي السَّبيا

ويتلذذ في سماع اخبارها والاستزادة في الحديث عنها، وربّما يحاول ابن الحداد أن يواسي نفسه بذلك لما يعانيه من صد وانقطاع الوصال[٣١]:

حديثكِ ما أحلى ! فزيدي وحدثي عن الرشإِ الفـــردِ الجمال المثلثِ
ولا تسأمي ذكـراهُ فالذكرُ مُؤنسي وإن بعث الاشواق من كل مبعثِ
وبالله فارقـــي خَبل نفسي بقوله وفي عقدِ وجدي بالإعادة فانفثي

وكثيراً ما أكد العاشقون على هيامهم بمن أحبوا، ومثلهم ابن الحداد الذي هام بنويرة المسيحية مع علمه بصدها ومعارضـة بنـي قومـه ودينـه لهـذا الحـب ولكنـه كـان متحـدياً مصـراً فـي ذلـك محـاولاً الثبـات علـى الـرغم مـن المعارضات الاجتماعية التي تجعل المنطلق الديني اساساً لمعارضتها[٣٢]:

وعرّجا يا فتيي عـــــــامرٍ بـــــالفتيات العيسويّاتِ
فإنّ بي للـــــــــــرومِ رُومةً تكنسُ ما بين الكنيساتِ
أهيمُ فيـــــها والهوى ضلةٌ بين صـــــوامعَ وبيعاتِ
وفـــي ظباء البدو من يزدري بالظبيات الحضـــريّات
أفصحُ وحدي يوم فصحٍ لهم بين الأريطى والدّويحاتِ

علمه بمن يزدري حبه لمسيحية إلا أنه يخالفهم فيفصح مع المسيحين لأجل نويرة، ويبدو أن ابن الحداد قد احبها دون المسلمات فلم يحب غيرها، إذ انّ ((للحب حكماً على النفوس ماضياً، وسلطاناً قاضياً، وأمراً لا يخالف، وحداً لا يُعصى ... وطاعة لا تُصرف، ونفاذاً لا يُرد، وأنّه ينقص المِرَر ويحل الممنوع))[٣٣]

فلا ممنوع من أحب، ونرى هذا القانون تجسد واقعاً في قصة ابن الحداد موظفاً إيها في أشعاره، من ذلك قوله[٣٤]:

عساكِ بحـقِّ عيساكِ — مُريحةَ قلبي الشاكي
فإنّ الحُسنَ قـــد ولاّ — كِ إحيـــائي وإهلاكي
وأولعنـــــي بصُلبانٍ — ورُهبـــــانٍ ونُسّاكِ
ولم آتِ الكنائس عن — هـــوىً فيهنَّ لولاكِ
وها أنا منكِ في بلوى — ولا فـــــرجٌ لبلوكِ
ولا اسطيعُ سُلـــواناً — فـقد أوثقتِ أشراكي
فكم أبكي عليكِ دماً — ولا ترثينَ للباكـــــي !

وهذا التذلل الذي عليه ابن الحداد لم يتفرد به عن السابقين، فهو من علامات المحبة التي يحددها ابن الجوزية بقوله: فمن ((علامات المحبة استكانة المحب لمحبوبه، وخضوعه له، والحب مبني على الذل ولا يأنف الذي لا يُذل لشيء ذله لمحبوبه، ولا يعده نقصاً ولا عيباً، بل كثيراً منهم يعدّ ذله عزاً))[٣٥].

ولم يثمر موقفه هذا مع نويرة بفائدة تذكر، فهي لم ترق لحاله ومخالفته لقومه، وهذا ما يؤكد أنّ الحب كان من طرف واحد، يعيشه الشاعر بمخيلته فدام هو على حبه ودامت هي على صدها[٣٦]:

هم في ضميركَ خيموا أم قـوضوا — ومنى جُفونكَ اقبلوا أم أعـــرضـــوا
وهم رضاكَ مـــــن الزّمان وأهله — سَخِطوا، كما زعمتْ وشاتكَ، أم رضوا
أهواهـــــــم وإن استمرّ قِلاهم — ومـــــن العجائبِ أن يُحبّ المُبغضُ
تنهى النهى عنهم ويأمرني الهوى — والنفسُ تُعـــــرضُ والمُنى تتعرضُ

وفي موقفه هذا رد على من يلومه ويعتب عليه ويعيب عليه هذا الموقف، وان كان هذا الحب من طرف واحد، وهذا ما أكده كثيراً صدها وعدم نيله المبتغى بوصالها، الا ان حكم الهوى لا حيلة لقلبه عليه، وربّما يفسر لنا كلام ابن حزم بعض اصرار العاشقين على حبهم مع مقابلتهم بالصد حين قال: ((من الناس من لا تصحّ محبته الا بعد طول المخافتة وكثرة المشاهدة))[٣٧]، فعسى ان ينالوا بعد طول الصبر المنى.

ويبدو أنّ هذه الامور التي اثبتها ابن حزم في كتابه وتجلت صورها في اشعاره كانت ركائز مدرسته في الحب، مستقرئاً في ذلك قصص السابقين، باحثاً في احوال المعاصرين، ليجعل منه منهاجاً للاحقين.

٢- **أعراض الحب:** ثم يعرج ابن حزم على أعراض الحب وصفاته المحبوبة والمذمومة التي منها:

أ- كتمان السّرِّ ومحاولة التصبر وعدم اظهاره باللسان ولكن ((يأبى السّرُّ الدقيق ونار الكلف المتأججة في الضلوع إلاَّ ظهوراً))[٣٨]، ويمكن ان نجد ذلك في كثير من اشعار ابن الحداد، من ذلك قوله[٣٩]:

إنّ المدامع والزفيرْ قد اعلنا ما في الضميرْ

فعلامَ أخفي ظاهراً سقمي عليَّ بـــه ظهيرْ ؟

فيصير بعد محاولة الكتمان قد أذيع سره وظهر أمره وافتضح، وربّما يكون ذلك رغماً عنه وهذا لم يفت ابن حزم حين وضع دستوره، فنسمعه يقول مبرراً ذلك الأمر: ((وكم مَصون الستر مُسبل القناع مسدول الغطاء قد كشف الحبّ سِترهُ ... فصار بعد الصيانة عَلماً، وبعد السكون مثلاً))[٤٠]، وهذا ما نراه مجسداً في قصة ابن الحداد، ومرتسماً في اشعاره[٤١]:

سيصبحُ سرّي كـــالصباح مُشهّراً ويمسي حديثي عُرضة المتحدثِ

ويَغرى بذكري بين كأس وروضةٍ ويُنشدُ شعري بـين مثنى ومثلثِ

وربّما كان هذا الأمر من إذاعة السرّ سبباً من اسباب النفور كما يرى ابن حزم[٤٢]، فكثرة التصريح لا تليق وعادات المجتمع العربي الاسلامي، فتنعكس سلباً عليه فيصبح ((كده عناء، وتعبه عباء، وبحثه وباء))[٤٣]

وهذا الامر خارج عن ارادة المحب، فالإذاعة ربّما تكون بغير ارادته، وافتضاح سره خارج عن سيطرته، وهذا عينه ما أقره دستور ابن حزم محاولاً ايجاد مبررات لأصحابه.

ب-الطاعة: وهنا يقول ابن حزم ((ومن عجيب ما يقع في الحب طاعة المحب لمحبوبه، وصرفه طباعه قسراً الى طباع من يحبه))[٤٤]، ويبدو هذا الامر واضحاً في شعر ابن الحداد حين يقول[٤٥]:

تُطالبني نفسي بما فيه صونها فأعصي ويسطو شوقها فأطيعها

و الله ما يخـفى عليّ ضلالها ولكنها تهـوى فـــــلا أستطيعها

ولا يتفق ابن حزم مع من قال بانّ الذلة للمحبوب دناءة في النفس، فلا عيب فيها ولا مكروه ((ولا يقولنَّ قائلٌ: إنّ صبر المحب على ذلة المحبوب دناءة في النفس فقد أخطأ...))[٤٦]، وعلى هذا النهج ترى ابن الحداد قد سار في قصته مع نويرة سالكاً في ذلك نهج من سبقه، فحاله كحالهم [٤٧]:

لقد سامني هُوناً وخسفاً هواكُمُ ولا غَرو عِزُّ الصّبِّ أن يتعبدا

وليست كلمة عبادة بمبالغة هنا ما دام من الممكن أن يتعلق الامر بامرأة سامية من الناحية الانسانية، يُجسد حبها الحياة والموت [٤٨]:

مشاعرُ تَهيَامٍ وكـــعبـــةُ فتـــــنةٍ فـــــؤادي من حُجّاجها ودُعاتِها

فكم صافحتني في مِنَاها يدُ المُنى وكم هبّ عَرفُ اللهوِ من عَرفاتِها

عهدتُ بها أصنام حُسنٍ عهـدنني هـــــوى عَبْدَ عُزَّاها وعَبْدَ مَناتِها

أهِـــــلُّ بأشواقي إليـــها وأتـــقي شرائعها فـــــي الحب حقّ تُقاتِها

فهي معبودته وكعبته التي يحج اليها وهي الوحيدة التي شغلت قلبه دون سواها وهو يوجب على نفسه ذلك، بـ ((أن تكون المرأة هي الوحيدة التي ينبغي أن تشغل قلب المحب فان ذلك بالضبط هو موضوع (الميثاق) العذري الذي يستبعد فيه المحب كل أمكانية للتفكير في أية علاقة مع امرأة غير حبيبته ودون أن يكون على يقين قط من وجود حب متبادل))[٤٩].

٣- العقبات:

أ- العاذل: يحدد ابن حزم آفات الحب بقوله: ((وللحب آفات، فأولها العاذل))[٥٠]، يلوم المحب على ما حل به قاصداً النُصح، فيستثقله ولا يُطيق سماعه، إلا أنّ هناك من يكون ((العاذل أحب شيء إليه، ليُري العاذل عصيانه ويستلذ مخالفته))[٥١]، وقد اعتاد الشعراء على ايجاد صورة العاذل في قصصهم، فارتسم في اشعارهم بأشكال متعددة، ولا يشذ ابن الحداد عن سواه في هذا الموضوع، فنراه يسمع لوم العاذل ويتأثر به ولكن يصبر على كلامه لا يُعيره اهتماماً[٥٢]:

وهم رضاكَ مـــــن الزّمان وأهله — سَخِطوا، كما زعمتْ وشاتكَ، أم رضوا
أهواهـــــــــم وإن استمرّ قِلاهم — ومـــــن العجائبِ أن يُحبّ المُبغضُ
تنهى النهى عنهم ويأمرني الهوى — والنفسُ تُعـــــــرضُ والمُنى تتعرضُ

وربّما تكون النفس هي العاذلة كما يرسمها ابن الحداد بقوله[٥٣]:

تُطالبني نفسي بما فيه صونها — فأعصي ويسطو شوقها فأطيعها
و والله ما يخفى عليّ ضلالها — ولكنها تهـوى فـــــلا أستطيعها

وغالباً ترى العاشق لا يعطي اهتماماً لكلام العاذل، مستصغراً شأنه، نابذاً رايه[٥٤]:

أهيمُ فيـــــــها والهوى ضلةٌ — بين صـــــوامعَ وبيعاتِ
وفـــي ظباء البدو من يزدري — بالظبيات الحضـــــريّات
أفصحُ وحدي يوم فصحٍ لهم — بين الأريطى والدّويحاتِ

هكذا كان للعاذل دور في قصة ابن الحداد موظفاً حضوره في قصته بمواقف العاذل الذي وجدناه لدى من سبقه، إذ لا توجد من قصص العشق من تخلو من شخصية العاذل التي تتمحور حولها بعض المواقف التي يعتمد عليها الشاعر في صياغة أحداث قصته، فمثّل العاذل شخصية ثانوية دائمة الحضور في قصص العشق.

ب-**الرقيب:** وبعد العاذل يُشير ابن حزم الى الرقيب، جاعلاً اياه من آفات الحب[٥٥] ولا غرابة في هذا اذ دائماً ما يرسم الشعراء صورة العاذل والرقيب متثاقلين وجودهما، مستوجبين حضورهما كونهما من مكملات القصة ومستلزماتها، وقد حضر الرقيب في قصة ابن الحداد كثيراً من ذلك قوله[٥٦]:

رُويدكَ أيّها الدّمّعُ الهتُونُ فدونَ عِيان من أهوى عُيونُ
يُظنُ بظاهري حِـلمٌ وفهمٌ ودخلةُ باطني فــيه جُنــونُ

فلم تغب شخصية الرقيب عن ابن حزم، فاستحضرها ضمن دستوره لما لها من دور في قصص العشق وإن كانت شخصية ثانوية إلاّ أن حضورها يؤدي أدواراً تسمح للشاعر أن يُعبر عن كثير من المواقف التي يرسمها مع صاحبته أو يُعبر من خلالها عن مواقف يريد ايصالها للأخرين، فكان حضورها واجباً في كثير من قصص العشق على مر الأزمان.

ت- **الوصل:** من قصة ابن الحداد مع نويرة يتضح أنها كانت دائمة الصّدِّ ولم يلتقيا أو يجمعهما مكان أنس الا في مخيلته، وهذا ما عمل على تجسيده في اشعاره، فيلتقي معها في مخيلته لا على الحقيقة راسماً بذلك حالة من سعادة اللقاء، ويصف ابن حزم الوصل بين المتحابين بانه سعد طالع اذ لا يناله الا ذو حظ ((ومن وجوه العشق الوصل، وهو حظ رفيع، ومرتبة سرية، ودرجة عالية، وسعد طالع، بل هو الحياة المجددة))[٥٧]، وهذا ما لم يعشه ابن الحداد ولم يحض به ولم يجرب حلاوته الا في مخيلته[٥٨]:

إذا جاءني زائـــــراً حُسنهُ أقام عليه رقيباً عتيـــــدا
إذا ما بـــدا سربلتْه العيونُ وخرّتْ وجوهٌ إليه سُجـودا
هو البدرُ والغصنُ خدّاً وقدّا كما أنّه الظبيُ لحظاً وجيدا
أتى زائراً وفـــــؤادي خليٌّ فمرّ به مُستهاماً عميـــدا
وغادرني بعدهُ فـــي غرامٍ تضرّم بين ضُلوعي وقودا

ولم يتفرد ابن الحداد في هذه الحال، ولم يكن بدعاً عن من سبقه، فهذه حال أكثر العاشقين، وقد أشار ابن حزم الى ذلك مدوناً إياه في دستوره، إذ انّ كل ما اثبته إنما هو نتيجة استقراء لتجارب الاخرين وقصصهم ونتيجة لما مر به من قصص وتجارب خاصة، صاغ وفقها هذه الاحكام والقوانين الخاصة بالعشاق لا سيما الأندلسيين منهم.

وربما حاول ان يجد مبرراً لقطيعته وعدم وصاله، وذلك في قوله[٥٩]:

حجبوكَ إلاّ من توّهمِ خاطـري وحموكَ إلاّ من تبوءِ بـــالي
والقارظان جميل صبري والكرى فمتى أُرجَّى منك طيف خيالِ؟

وتتجلى المفارقة هنا بالمستوى الدلالي الذي يقوم على الفراق الانساني الذي يظهر في النصوص السابقة، فـ ((قد بدا الموقف الانساني المتضاد بين الشاعر وخليله، فإذا كان هو يريد الانسجام والالفة، فان صنيع الخليل مناقض لذلك، بان فضل الفراق والابتعاد عن الشاعر، يخاطب الشاعر خليله ليحدث تبايناً في المواقف الانسانية، انسان يرغب بالتواصل واقامة السعادة الانسانية، وانسان يرغب بالقطيعة واللاحب بل احداث علاقة لا انسانية وربما عدائية...))[٦٠]. وربما هذه القطيعة أو البعاد لا يكون ناتجاً عن كره أو بغض وإنما يكون نتيجة لضغوطات المجتمع الذي يتحكم كثيراً من خلال العادات والتقاليد التي يسري

مفعولها على الجميع في العم الأغلب، فنراه يفرق بين الأحبة ويجمع الشخص مع من يُبغضه لا لشيء وإنما لان العُرف والأحكام الاجتماعية تفرض ذلك، وعليه فقد عان ابن الحداد كثيراً من هذه الأحكام فحُرب من ابناء جلدته لأنه عشق فتاة مسيحية، وربما هي تجبه لما أراد خوفاً من أحكام اجتماعية تحكمت بها واجبرتها على الابتعاد والصد عنه كونه مسلم لا ينتمي لدينها، وهذه احدى المعوقات المهمة التي تحكمت بقصدة ابن الحداد ونويرة وحكمت عليهما بالفراق، مع إيماننا بانّ قصص الحب في الأدب العربي عموماً قد تغاضت عن الفروق بين الطبقات، فالخليفة يعشق جارية[٦١] وألغت أيضاً الفروق التي تأتي من المنزلة الاجتماعية، فالقس لُقب بهذا لشدة ورعه، يحب جارية مغنية تتكشف للناس هي سلامة ويقول فيها الاشعار[٦٢]، وألغت أيضاً الفروق التي بسبب العقيدة، فالوليد بن يزيد يعشق جارية نصرانية[٦٣]، ولكنها مع ذلك لم تنتصر على المعوقات الاجتماعية[٦٤].

ث-**الهجر**: ويضيف ابن حزم الهجر للآفات الداخلة على الحب[٦٥]، ويوافق من كلامه لقصة ابن الحداد ما عاناه من هجر القلى[٦٦]، وهو هجر لا أمل للوصال معه ولا رجاء للقاء بعده، فتعتصر له القلوب ولا ناصر لها منه إلاّ التصبر[٦٧]:

نوى أجرتِ الأفلاك وهي النّواعجُ وأطلعتِ الأبراج وهي الهوادجُ

طواويسُ حُسنٍ روعتني ببينـــها غرابيب حُزنٍ بالفراق شواحجُ

ومن ذلك قوله[٦٨]:

حجبتِ سناكِ عن بصري وفوق الشمسِ سيمالِ

.....

نُويرةُ إن قليتِ فإنـــــــ ـــــــنني أهواكِ أهواكِ

وغالباً ما يكون الهجر نتيجة الصد والواشي، وهي مسلمات في قصص العشاق، فيكون الهجر حاضراً غالباً ليفسح مجالاً للشاعر لبث شكواه ولوعته والتعبير عن ألمه وحسرته، فلا أفضل من فسحة الهجر ولا أوسع مداً من لوعة الفراق للتعبير عن ذلك.

٤- **الوفاء**: وهو ((من حميد الغرائز وكريم الشيم وفاضل الاخلاق في الحب وغيره))[٦٩]، والوفاء ظاهرٌ بينٌ في قصة ابن الحداد واشعاره، فلم يتغزل بغيرها ولم يمل لسواها ((والمصادر التي ترجمة له لم تذكر أنّه أحب غير واحدة، وشعره الغزلي لم يُشر الى أنّه علق بغير صبيه))[٧٠]، الا وهي نويرة، فكان وفياً لحبه لها وهو يؤكد صدق حبه ومدى اخلاصه الذي يعكس شرفه ونبله وعريق أصله[٧١]:

وفي شرعة التثليثِ فردُ محاسنٍ تنزّل شرعُ الحبِّ من طرفه وحيَا

وأُذهلُ نفسي في هوى عيسويةٍ بها ضلّت النفسُ الحنيفيةُ الهدْيا

فــمن لجُفوني بالتماح نــويــرةٍ فتاةٌ هي المردى لنفسي والمحيا؟

وقد اكد ذلك الامر في كثرة الحاحه على ذكر اسمها دون سواها، وتغزله الدائم بها دون النساء.

الخاتمة

إنّ أهم ما يمكن الوقف عنده بعد استعراض تجربة الشاعر ابن الحداد وفق كتاب طوق الحمامة، هو محاولتنا الاجابة عن السؤال أو الفرضية التي وضعنها في أول البحث واشرنا اليها في حينه، ألا وهو محاولة تتبع الركائز الاساسية التي قامت عليها المدرسة الغزلية التي حاول انتاجها ابن حزم في كتابه، وهذا ما عملنا عليه من خلال تتبع تجربة ابن الحداد مع نويرة وفق قوانين ابن حزم، وهنا نستطيع أن نقول أن لابن حزم مدرسة في الغزل لكنها لم تختلف في قوانينها عمّا عرفه الشعر العربي عموماً بل نستطيع القول جازمين أنها نابعه منه، وسائرة على منوال ما جاء به الشعراء العرب السابقين وما مروا به من تجارب، وهو لم يحاول ان يثبت تفرده عنهم بل جاء على منوالهم وسار على خطاهم، ولكن الذي ميزه أنه لم يستشهد بتجاربهم ولم يعرج عليهم وإنما أكتفى بتجارب اهل الاندلس، وكأنّما جاء به من تجارب خاصة بهم دون غيرهم محاولة منه لتميزيهم عن أهل المشرق ولو بالتجربة، وهذا ما عمل عليه، فنستطيع القول أنه حاول أن يؤسس مدرسة غزلية خاصة باهل الأندلس من حيث التجارب فقط، أما الخطوط العامة والسياقات والاحداث التي عان منها الأندلسي هي ذاتها التي عايشها العربي عموماً، فلم يتميز عنه في ذلك ولم يختلف سوى بأبعاد التجربة وظروفها المحيطة، ولكن يحسب لابن حزم محاولته الرائدة في هذا المضمار كونه فقيهاً خاض في تأليف مثل هذا الكتاب، الذي صار وثيقة خلّدت قصص العاشقين في الأندلس.

الهوامش

(١)ديوانه : ١٧٢.

(٢)للاطلاع على بعض تلك الاسباب ينظر: تاريخ الادب الاندلسي عصر الطوائف والمرابطين، احسان عباس: ج٢/ ١٣٠.

(٣)ينظر: مجلة الكاتب ع ١١-١٢/ ٣٤٨.

(٤)ينظر: ديوانه: ٧-٨.

(٥)ينظر: رايات المبرزين: ١٨٩.

(٦)الذخيرة: ٣٤١.

(٧)نفح الطيب : ٤٩/٤.

(٨)المغرب: ١٤٣/٢

(٩)ينظر: المغرب ١٤٤/٢.

(١٠)الذخيرة: ٤٣١/١.

(١١)ديوانه : ٣٦.

(١٢)ديوانه : ٣٧.

(١٣)الحب العذري نشأته وتطوره : ١٣.

(١٤)لسان العرب : مادة (عشق).

(١٥)مصارع العشاق: ١١/١-١٢.

(١٦)ديوانه: ٢٣٠-٢٣١.

(١٧)الحب العذري نشأته وتطوره: ٤٩- ٧٤.

(١٨)طوق الحمامة : ٢٢.

(١٩)ينظر: م. ن : ١٩.

(٢٠)م. ن : ٢٢.

(٢١)الحب العذري نشأته وتطوره: ٢٠٢.

(٢٢)ديوانه : ١٠٩-١١٠.

(٢٣)سوسيولوجيا الغزل العربي الشعر العذري نموذجاً : ١٠١.

(٢٤)طوق الحمامة: ٢٩.

(٢٥)روضة المحبين ونزهة المشتاقين : ٢٦٢.

(٢٦)طوق الحمامة : ٣٢.

(٢٧)ينظر : ديوانه : ١٩٠-٢٤٢-٣٠٥.

(٢٨)ديوانه : ١٦٠.

(٢٩)ديوانه : ٢٦٤.

(٣٠)ديوانه : ٣٠٦.

(٣١)ديوانه : ١٦٩-١٧٠.

(٣٢)ديوانه : ١٥٧- ١٥٨.

(٣٣)طوق الحمامة : ٤٧.

(٣٤)ديوانه : ٢٤١. وللاستزادة ينظر ديوانه : ٣٠٦.

(٣٥)روضة المحبين ونزهة المشتاقين : ٢٨٢.

(٣٦)ديوانه : ٢٣١. وللمزيد من الشواهد ينظر : ديوانه : ٢٢١- ٢٥١-٢٥٦.

(٣٧)طوق الحمامة : ٤٣.

(٣٨)م. ن : ٥٦.

(٣٩)ديوانه : ٢٢٢. وللمزيد من الشواهد ينظر : ديوانه : ٢٦٤-٣٠٨-٣٠٩.

(٤٠)طوق الحمامة : ٦٠.

(٤١)ديوانه : ١٧٢.

(٤٢)ينظر : طوق الحمامة : ٦١.

(٤٣)م. ن : ٦١.

(٤٤)طوق الحمامة : ٦٣.

(٤٥)ديوانه : ٢٣٥.

(٤٦)طوق الحمامة : ٦٥.

(٤٧)ديوانه : ١٩١.

(٤٨)ديوانه : ١٦٣-١٦٤.

(٤٩)سوسيولوجيا الغزل العربي الشعر العذري نموذجاً : ٩٦-٩٧.

(٥٠)طوق الحمامة : ٦٩.

(٥١)م. ن: ٧٠.

(٥٢)ديوانه : ٢٣١.

(٥٣)ديوانه : ٢٣٥.

(٥٤)ديوانه : ١٥٧.

(٥٥)ينظر : طوق الحمامة : ٧٣.

(٥٦)ديوانه : ٢٦٤.

(٥٧)طوق الحمامة : ٨٤.

(٥٨)ديوانه : ١٩٥.

(٥٩)ديوانه : ٢٤٩.

(٦٠)المفارقة في الشعر الاندلسي دراسة في الانساق الثقافية شعراء عصر الطوائف نموذجاً: ١٨٤.

(٦١)كأمر يزيد مع الجارية حبابة، ينظر: الاغاني ٣١٥/٨، و مصارع العشاق: ١٠٢/١ و ١١٩. وكأمر يزيد مع عُمارة جارية عبد الله بن جعفر، ينظر: مصارع العشاق: ١٢٥/٢.

(٦٢)ينظر : الاغاني: ٣٣٤/٨.

(٦٣)ينظر: مصارع العشاق: ١٦٨/٢.

(٦٤)ينظر: قصص العشق النثرية في العصر الاموي: ١٩٩.

(٦٥)ينظر: طوق الحمامة : ٩٢.

(٦٦)ينظر: م. ن. : ١٠٢.

(٦٧)ديوانه : ١٧٣.

(٦٨)ديوانه : ٢٤٢. وللمزيد من الشواهد ينظر: ديوانه : ١٩٠-٢٠٥-٢٣١-٢٣٦.

(٦٩)طوق الحمامة : ١٠٤.

(٧٠)ديوانه : ٣٦.

(٧١)ديوانه : ٣٠٦. ولتأكيد الامر تنظر الشواهد في ديوانه: ١٩٠-٢٤٢-٢٦٤.

مصادر البحث

١. الاغاني لأبي الفرج الاصفهاني (٢٥٦هـ) فهرسة ومراجعة عادل عبد الجبار وأثير هادي، منشورات دار ومكتبة الهلال ، بيروت طبعة أولى ٢٠٠٢.

٢. تاريخ الادب الاندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، د. احسان عباس، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان الاردن، ٢٠١١.

٣. الحب العذري نشأته وتطوره، أحمد عبد الستار الجواري، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٦.

٤. ديوان ابن الحداد الأندلسي (ت ٤٨٠هـ) جمعه وحققه وشرحه وقدم له د. يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت_ لبنان، الطبعة الأولى ١٩٩٠.

٥. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، علي بن بسام الشنتريني، تحقيق عبد الحميد العبادي ، عبد الوهاب عزام /مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٢ .

٦. رايات المبرّزين وغايات المميّزين لابي الحسن علي بن موسى بن سعيد الأندلسي (٦١٠-٦٨٥)، حققه وعلق عليه د. محمد رضوان الداية، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٨٧.

٧. روضة المُحبين ونزهة المُشتاقين ، تأليف الامام شمس الدين محمد بن ابي بكر بن ايوب الدمشقي الحلبي المعروف بابن القيم الجوزية المتوفى ٧٥١هـ، خرّج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه أحمد شمس الدين، الناشر دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.

٨. سوسيولوجيا الغزل العربي، الشعر العذري نموذجاً، د. طاهر لبيب ترجمة وتقديم د. محمد حافظ دياب، سينا للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٤.

٩. طوق الحمامة في الألفة والألاف، لابي محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦هـ) قدم له وضبطه وشرحه ووضع فهارسه د. صلاح الدين الهواري، دار ومكتبة الهلال، بيروت – لبنان ٢٠٠٣.

١٠. قصص العشق النثرية في العصر الأموي، د. عبد الحميد إبراهيم، دار المعارف/ القاهرة ١٩٨٧

١١. الكاتب، عدد خاص بالذكرى الألفية لميلاد ابن زيدون ٣٩٤هـ _ ١٣٩٤هـ، مجلة يصدرها اتحاد المؤلفين والكتاب العراقيين في بغداد، السنة التاسعة، العددان ١١-١٢، ١٩٧٥، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٧٥.

١٢. لسان العرب للإمام العلامة ابن منظور ٦٣٠-٧١١هـ تحقيق ياسر سلمان ابو شادي و مجدي فهمي السيد، دار التوفيقية للتراث، القاهرة، ٢٠٠٩.

١٣. مصارع العشاق تأليف الشيخ أبي محمد جعفر بن أحمد بن الحسين السرّاج القارئ، دار صادر بيروت، الطبعة الثانية ٢٠٠٧.

١٤. المغرب في حُلى المغرب، حققه وعلق عليه د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة ١٩٩٣.

١٥. المفارقة في الشعر الأندلسي (دراسة في الانساق الثقافية) شعراء عصر الطوائف نموذجاً، د. صادق جعفر عبد الحسين، مجلة آداب ذي قار سنة ٢٠١٣، مجلد ٣ العدد ٩.

١٦. نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، احمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق د. احسان عباس، دار صادر بيروت ١٩٦٨.